

السيرة - سيرة الصحابييات الجليلات - أمهات المؤمنين - سيرة السيدة خديجة بنت خويلد -
الدرس ٤-٨ : الإرهاصات قبل البعثة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٠-٠١-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .
أيها الأخوة الكرام مع الدرس الرابع من سيرة صحابييات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسهم أزواجه الطاهرات ، ونتابع الحديث عن السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

اقترب النبي من الأربعين من عمره وبدأت تباشير النبوة وإرهاصات تلوح في أفق حياته :

مرّت الأعوام والأعوام على أكرم زوجين ، ويا أيها الأخوة كلما ازداد إيمان الزوجين ، ازدادت سعادتهما ، وكلما ضعف إيمان أحدهما أو كليهما افترقا عن بعضهما ، فالإيمان يجمع ، وضعف الإيمان يفرّق ، وهذه حقيقة ، فإذا أردت أن تكون زوجاً سعيداً فكن من الله قريباً ، ولتكن الزوجة من الله قريبةً ، هذا يُعين على تمام السعادة الزوجية .

تعمّما فيها بأسعد الأوقات وأهنأ الساعات ، ولما اقترب النبي صلى الله عليه وسلم من الأربعين من عمره الشريف ، بدأت تباشير النبوة وإرهاصات ، تلوح في أفق حياته ، الله عز وجل حكيم ، وربنا عز وجل يرّبي ، فلو أن النبوة جاءت فجأة ، لو جاءه جبريل فجأة من دون مقدمات ، من دون إرهاصات ، ربما لم يحتمل قلب النبي صلى الله



عليه وسلم الوحي أول مرة ، ولكن نحن الآن مع مقدمات ، مع تباشير ، مع إرهاصات ، هذه من شأنها أن تمهد للوحي الذي هو عماد ديننا القويم .

((إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج
لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً))

[روى ابن سعد عن برة بن أبي]

يجب أن تعلموا طبيعة الحياة التي عاشها النبي ، أو يجب أن تعلموا خشونة الحياة التي عاشها
النبي ، فكان إذا أراد أن يقضي حاجة لا بد أن يذهب إلى مكان بعيد بعيد حتى لا يراه أحد ، حتى
لا يرى بيتاً من أجل قضاء حاجة ، لم تكن الحمامات قد عُهدت في البيوت .

من تباشير النبوة :

كان النبي إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية من أجل
أن يقضي حاجته ، قال : فلا يمر بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال له : " السلام عليك يا رسول الله " ،
يسمع صوت السلام عليك يا رسول الله ، كان يلتفت عن يمينه وعن شماله ومن خلفه فلا يرى
أحداً .

هذه أولى تباشير النبوة ، صوتٌ يلقى في أذنه أن : " السلام عليك يا رسول الله " دون أن يرى
أثراً أو أن يرى أحداً ، يؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح :

((إني لأعرف حجراً كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن))

[صحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه]



نسمي هذا شفافية ، فالإنسان كلما
اقترب من الله عز وجل رأى ما لا يراه
الآخرون ، سمع ما لم يسمعه الآخرون
، أحس بما لم يحس به الآخرون ،
شعر بما لا يشعر به الآخرون ، هذه
الشفافية ذكرها النبي عليه الصلاة
والسلام حينما قال :

كلما اقترب الإنسان من الله رأى ما لا يراه الآخرون

((لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ أَوْ عَلَى طُرُقِكُمْ))

[ابن ماجه عن حنظلة]

كان عليه الصلاة والسلام يخطب على جذع نخلة ، فلما صنع له أصحابه منبراً وانتقل إلى المنبر
حن إليه جذع النخلة فكان عليه الصلاة والسلام يضع يده عليها تكريماً لها ، هل عندك هذه
الشفافية ؟

دخل إلى بستان أحد الأنصار فرأى جملاً ، فلما رآه الجمل حن ، وذرفت عيناه وصار يبكي ، فدخل عليه الصلاة والسلام ، وأمسك برأس الجمل :

((أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَمْ أُحَدِّثْ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ ، قَالَ : فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ : مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبُهَيْمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ .))

[أبو داود فعن عبد الله بن جعفر]

كأنه يفهم على الحيوان ، كأنه يسمع كلام الحيوان ، كأنه يشعر على الجماد :

((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث واني لأعرفه الآن))

[ورد في الصحيحين عن جابر بن سمرة]

السيدة خديجة رضي الله عنها كانت أقرب الناس إلى النبي روحاً وجسداً :

قالت السيدة خديجة : إن أول بشارات الوحي ، إن أول بدايات الوحي أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا سار ما من حجرٍ إلا يقول له : " السلام عليك يا رسول الله ". لكن سبحان الله الحكمة التي ما بعدها حكمة أن هذه الزوجة آتاه الله من العقل ، ومن النضج ، ومن بُعد النظر ، ومن سعة الأفق ، ومن قوة القلب الشيء العجيب ، كان عليه الصلاة والسلام يخشى على نفسه ، ما هذا الذي أسمعه؟! لا يرى أحداً ، فلو سمع أحدٌ صوتاً ولم ير صاحبه يضطرب .

كان عليه الصلاة والسلام حينما تعرض له هذه الحوادث الغريبة الخارقة للعادة ، تثير في نفسه شيئاً من القلق والخوف ، ويصبح محتاجاً إلى شخصٍ يثق به بيثه ما يجده ، فالله عز وجل ماذا قال ؟ قال :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢١)

(سورة الروم)

الإنسان بحاجة ماسة إلى شخص بيثه ووجده ، بيثه قلقه ، بيثه تساؤله ، فكان عليه الصلاة والسلام يأتي إلى البيت ، ويحدث السيدة خديجة بما يشعر به ، والسيدة خديجة رضي الله عنها كانت أقرب الناس إلى النبي روحاً وجسداً ،



المرأة العاقلة الناضجة هي مصدر سكينه للزوج

فهي أهله ، وسكنه ، وأنس روحه ونفسه رضي الله عنها ، وقد ذكرت بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قد حدثها بما يعتريه .

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِخَدِيجَةَ :

((إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَّ ، قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلْ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بِنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ يَكُ صَادِقًا فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأَعَزُّهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُؤَمِّنُ بِهِ))

[أحمد عن ابن عباس]

قالت : "إن الله لا يفعل ذلك بك ، إنك تصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم " .

خالق هذا الكون لا يفعل شراً بإنسان صادق وأمين :

أيها الأخوة ، أنا أشعر بحاجة إلى وقفة متأنية عند هذا النص ، السيدة خديجة هل جاءها وحي ؟ لا ، هل كان الحق معروفاً قبل بعثة النبي ؟ لا ، لكن كيف عرفت أن هذا الذي يصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويقري الضيف ، ويحمل الكل ، أن هذا الإنسان لا بد أن يكرمه الله ، ومستحيل أن يفعل الله به شراً ، ما هذا ؟ من أين جاءت بهذه الحقيقة ؟ من الذي علمها إياها ؟ أين سمعت هذه الحقيقة ؟ من الذي أخبرها بها ؟ قال لها :

((إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَّ قَالَتْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلْ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ))

[أحمد عن ابن عباس]



حين تكون كريماً ورحيماً انتظر من الله كل خير

إنك تصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم .

الجواب : هذه هي الفطرة ، كل إنسان على وجه الأرض جبله الله جبلةً عاليةً، خالق هذا الكون لا يفعل شراً بإنسان صادق ، بإنسان أمين ، بإنسان مُحسن ، بإنسان كريم ، بإنسان مُنصف، إنك تصل الرحم ، إنك تحمل الكل ، إنك تعين على نوائب الدهر ، إنك صادق ،

إنك أمين ، ما كان الله ليفعل بك ذلك ، لكن نحن ماذا نستفيد من هذا النص ؟ هذا النص يهمننا كثيراً ، أي أنك أيها الأخ الكريم إن صدقت مع الناس ، إن كنت أميناً ، إن كنت

مُنصفاً ، إن كنت رحيماً ، إن كنت باراً بوالديك ، إن كنت مُحسناً إلى جيرائك، إن كنت كريماً مع من يزورك ، ماذا تنتظر من الله عز وجل ؟

الفطرة تقول : ينبغي أن تنتظر من الله كل خير ، ينبغي أن تنتظر من الله كل نصر ، وكل تأييد ، وكل عطاء ، وكل تكريم ، ربُّ محمدٍ ربُّنا ، وإلهُ محمدٍ إلهُنا ، والذي خلق محمداً هو الذي خلقنا، وقوانينه هي هي ، سننه هي هي ، فأنت أيضاً أصدق ، وكن أميناً ، وكن نصوحاً ، وكن باراً ، وكن منصفاً ، وكن رحيماً ، وينبغي أن تنتظر من الله كل خير ، ينبغي أن تعلم علم اليقين أن الله لن يضيعك ، ينبغي أن تعلم علم اليقين أن الله لن يخذلك ، لن ينالك بسوء — إنك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، ما كان الله ليفعل بك ذلك — هذا كلام السيدة خديجة رضي الله عنها .

لحكمة بالغة كانت السيدة خديجة سكناً للنبي وعوناً له ومثبتاً :

إذاً لحكمة بالغة جعل الله هذه الزوجة ذات القلب الكبير ، والإدراك العميق ، والصدر الواسع ، وقوة التحمل ، كانت سكناً للنبي ، وعوناً له ومثبتاً .
بربكم أيها الأخوة هل تظنون أن هذه المرأة ، بهذه الأخلاق ، وهذا النضج ، تعد أقل من الرجل ؟
المرأة لها عند الله شأنٌ كبير ، لذلك في بعض الآيات :

﴿ إِنِّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً

عَظِيماً (٣٥)﴾

(سورة الأحزاب)

لماذا ذكر المؤمنات ، والصائمات ، والمسلمات ، والصادقات ؟ ليبين الله لنا أن المرأة في شأن التكليف مساوية للرجل تماماً ؛ تكليفاً ، وتشريفاً ، ومسؤوليةً .

الحقيقة من أدق كلمات هذه السيدة ، هذا الكلام الذي ينبع من الفطرة ، ما كان الله ليفعل بك ذلك :
((إِنِّي أَرَى ضَوْءاً وَأَسْمَعُ صَوْتاً وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنٌّ قَالَتْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلْ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ))

[أحمد عن ابن عباس]

إنك تصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، فهل يصح أن نقول : وراء كل رجلٍ عظيم امرأة ؟ هذه مقولة قالها بعض الحكماء ، أحياناً ترى أنها تصدق على بعض البيوت .

الله لا يخزي من كان أميناً ومخلصاً وورعاً :

الآن انتقلنا إلى مرحلة ثانية ، أول بشائر الوحي ، أول إرهاصات الوحي ، أول تمهيد للوحي ، أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا رأى حجراً قال : " السلام عليك يا رسول الله " ، فقط ، يلتفت النبي يمنةً ويسرةً فلا يرى أحداً ، قلق ، وخاف على نفسه أن يكون كاهناً ، عرض هذا على السيدة خديجة قالت له : " لا إنك تفعل كذا وكذا ، وما كان الله يخزيك أبداً " ، وفي الكلام له عدة روايات :

((والله لا يخزيك الله أبداً))

[الزهري عن عائشة]

اسمحوا لي أيها الأخوة أن أقول لكل شاب في مطلع حياته : كن صادقاً ، وكن أميناً ، وكن منصفاً ، وكن محسناً ، وكن ورعاً ، وكن مطيعاً ، والله لن يخزيك أبداً ؛ لا في زواجك ، ولا في عملك ، ولا في مستقبل أيامك ، ولا في صحتك ، الله جل جلاله يقول :



لكل شاب أقول كن ورعاً ومطيعاً ولن يخزيك الله

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)﴾

(سورة القلم)

وقال :

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾

(سورة السجدة)

وقال :

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٦١)﴾

(سورة القصص)

بداية نزول الوحي كانت الرؤيا الصادقة :

الآن دخلنا في طورٍ جديد ، ثم ابتدأ الوحي ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالرؤيا الصادقة ، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح عن عائشة أنها قالت :

((أَوَّلُ مَا ابْتَدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّبُوءَةِ حِينَ أَرَادَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَرَحْمَةً الْعِبَادِ بِهِ أَنْ لَا يَرَى شَيْئاً إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ))

[البخاري عن عائشة]

أحياناً الإنسان لتكريم الله له ، يريه رؤيا صادقة ، رؤيا واضحة ، رؤيا لا تحتاج إلى تفسير ، كلما اتضحت الرؤيا ، وكلما أصبحت واضحة المعالم ، هذه الرؤيا من الله عز وجل ، وهي نوع من الإعلام المباشر ، إذا أراد الله أن يعلمك إعلاماً مباشراً ، إذا أراد الله أن يطمئنك ، إذا أراد الله أن يكرمك ، إذا أراد الله أن يُلقي في روعك شيئاً ، ماذا يفعل بك ؟ يريك رؤيا صادقة ، لذلك

قال عليه الصلاة والسلام :

((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ
أَوْ تُرَى لَهُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ
جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ))

[مالك عن عطاء بن يسار]

قد تكون الرؤيا الصالحة بشارة ، وقد تكون لفت نظر أو تحذير .



الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

كان عليه الصلاة والسلام يسكن إلى هذه السيدة المصون ، ويرتاح لها ،

ويطمئن لها ، وكان يبيتها بعض أجزائه ، وكان يسألها أحياناً ، كلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا قصّها على السيدة خديجة رضي الله عنها ، فتثبته وتبشّره ، تُعدّ المرأة أحياناً ركناً من أركان الأسرة ، وأحياناً تعد عبناً على زوجها.

رأى عليه الصلاة والسلام مرة في منامه ، أن سقف بيته نزعته منه خشبة ، وأدخل فيه سلم من فضة ، ثم نزل إليه رجلان ، فأراد أن يستغيث فمُنِع من الكلام ، فقعد أحدهما إليه والآخر إلى جنبه ، فأدخل أحدهما يده في جنبه فنزع ضلعين منه ، فأدخل يده في جوفه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجد بردهما ، فأخرج قلبه ، فوضعه على كفه ، فقال لصاحبه : نعم القلب قلب رجل صالح ، فطهر قلبه وغسله ، ثم أدخل القلب مكانه ، وردّ الضلعين ، ثم ارتفعا ، ورفع سلمها ، فإذا السقف كما هو ، هذه رؤيا .

اتصالك بالله هو سبب تطهير قلبك وهذا إرهاب من إرهابات النبوة :

الله عز وجل يعتني بهذا النبي عنايةً فائقة ، ألم يقل الله عز وجل في بعض الآيات الكريمة :

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾

(سورة طه)

ألم يقل الله عز وجل :

﴿فَاتِكَ بِأَعْيُنِنَا (٤٨)﴾

(سورة الطور)

هذه سمّاها العلماء : إرهاصات ،
فحينما يأتي الوحي هناك تمهيد ،
والإنسان إذا اتصل بالله عز وجل
يطهر الله قلبه ، فهذا الشيء المؤمن إذا
اتصل بالله اتصالاً عميقاً طهر الله قلبه
من الحقد ، من الغيرة ، من الكبر ، من
العجب ، من الأمراض المهلكة ،
فالقلب الطاهر هو أئمن رأس مال
يملكه الإنسان ، والدليل قوله تعالى :



﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

(سورة الشعراء)

الإنسان أحياناً بإقباله على الله يطهر الله قلبه ، هذا التطهير جاء بشكل مجسّد ، أن نزل ملكان من
سقف الغرفة ، نزعا قلبه ، غسله ، وطهراه ، وأعاداه إلى مكانه .

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾

(سورة الأحزاب)

تطهير القلب هكذا يكون ، اتصالك بالله هو سبب تطهير قلبك ، هذا إرهاصٌ من إرهاصات النبوة

نذكر هنا قول السيدة خديجة ، حينما سمعت هذه الرؤيا التي قصها النبي صلى الله عليه وسلم
قالت له : " أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً " ، هذا خيرٌ فأبشر ، أرايتم أيها الأخوة إلى
التمهيد ، كيف أن الله جل جلاله يمهد لهذا النبي الكريم الوحي عن طريق الرؤيا الصادقة ، وعن
طريق أن يرى نوراً وصوتاً دون أن يرى شيئاً ، وعن طريق السلام عليه بالرسالة .

شق الصدر وتطهير القلب معنى شريف أراد الله أن يمهد به الوحي الذي سينزل على محمد :

طبعاً شق صدره هو من إرهاصات النبوة ، وقد وردت به أحاديث صحيحة ، أما أن نفهم شق
الصدر فهماً آخر ، من أن كل قلب فيه علقّة سوداء ، الملكان نزعا هذه العلقّة من صدر النبي
فصار نبياً ، هذا الفهم أن كل إنسان لو شق صدره ، ونزعت منه العلقّة السوداء ، وهي حظ
الشیطان منه ، صار نبياً ، هذا كلام مرفوض ومضحك ، لو صدّقنا بهذا التفسير ، لما كان من
قيمة لهذا النبي ، هو إنسان عادي ، ولكن نزعت منه هذه العلقّة السوداء ، وأي إنسان آخر يقول
لك : أنا لو نزعت مني هذه العلقّة لكنت نبياً ، هذا تفكير وتحليل ساذج مرفوض ، إلا أن شق

الصدر وتطهير القلب معنى شريف أراد الله أن يمهّد به الوحي الذي سينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيدينا عيسى حينما قال وهو لا يزال صغيراً قال :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾

(سورة مريم)

ماذا نسمي هذا ؟ إن قلنا : هذه معجزة ، المعجزة تكون لنبي أتاه الله رسالة ، فهو يتحدّى بها ، أما أن يقول مولودٌ صغيرٌ ولد لتوّه :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾

(سورة مريم)

هذا ليس معجزةً ، هو خرقٌ للعادات ، ولكن العلماء — علماء العقيدة — سمّوه : إرهاباً ، أي بشارات مبكرة للنبوّة ، وهذه الرؤيا أن ملكين نزلا ، وغسلا قلب النبي أيضاً إرهاباً من إرهابات النبوّة .

حب الله تعالى إلى نبيه الكريم في أثناء هذه المرحلة الخلوة لنفسه والعزلة عن الناس :

استمرت مرحلة الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، وكانت رحمة الله تعالى قد عمّت هذا البيت الكريم ، لأن هذه الرؤيا الصادقة — كما قال علماء السيرة — فيها توطئة لنزول الوحي عليه يقظةً ، هذا في المنام ، رأى في المنام كذا ، وقد حبيب الله تعالى إليه في أثناء هذه المرحلة الخلوة لنفسه والعزلة عن الناس .



أخواننا الكرام ، لا بد لك من خلوة مع الله ، أن تكون مع الناس دائماً ، هذا يبعدك عن الله عز وجل ، لا بد من خلوة مع الله ، ولا بد من شحنة روحية مع الله ، فكان عليه الصلاة والسلام يعتكف في غار حراء الليالي نوات العدد ، وكل إنسان بإمكانه أن يصلي الفجر ، وأن يذكر الله ، وأن يتلو القرآن ، وأن يناجي ، وأن يستغفر هذه

خلوة مجزأة ، النبي عليه الصلاة والسلام حبيب إليه الخلوة مع الله .

ألم يقل أحد العلماء : " ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدونني فأبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة " ، أي لا بد لك من خلوة مع الله ، لا بد لك من قوت تتاجي به ربك .

حدثني أخ كان بالحج ، قال لي : تمنيت يوم عرفات أن أخلو بنفسي مع الله ، أنا جالس في الخيمة مع أناس كثيرين يتحدثون في شؤون الدنيا ، فلا بد أن أستمع لهذا أو لذاك ، وكأن هؤلاء الذين كانوا معي كانوا حجاباً بيني وبين الله ، قلت له : لم لم تذهب إلى خارج الخيمة ، وتجلس في مكان تتاجي الله فيه ، وأنت في أشرف أيام حياتك يوم عرفات ؟ فالخلوة تشحنك ، الخلوة تجعلك تتصل بالله عز وجل .

كان أنس النبي شديداً في غار حراء حتى غلب أنسه بالله وحشة المكان :

إذا حبيب الله تعالى إليه الخلوة لنفسه والعزلة عن الناس ، والعلماء قالوا : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس ، فهناك إنسان ليست لديه إمكانية أن يجلس وحده أبداً فهو دائماً مع الناس ؛ يتحدث ، ويستمع ، ويعلق ، ويسأل ، ويجيب ، ويلقي بعض الطُرف أما وحده يمل ، المؤمن يأنس بالله وحده .

كان عليه الصلاة والسلام يخرج إلى غار حراء ، إن شاء الله عز وجل يكرمكم بزيارة بيت الله الحرام حجاً أو عمرةً ، اذهبوا إلى سفح جبل النور ، وانظروا ، الشاب الجلْدُ الرياضي الذي في ريعان شبابه ، لا يستطيع أن يصل إلى غار حراء إلى جبل النور في ظاهر مكة إلا بين ساعتين أو ثلاث من الجهد الجهد ، والطريق هكذا ، جدار ، قلت : سبحان الله كيف كان عليه الصلاة والسلام يصعد إلى هذا الغار ، لو أن الإنسان صعد إلى هذا الغار وجلس وحده والله في وحشة لا تحتمل ، كم كان أنسه بالله عظيماً حتى غلب على وحشة المكان !! فالجبال في الليل ، أن تكون وحيداً في جبل ، شيء مخيف ، يوجد مفاجآت ، تصورات ، تخيلات ، كم كان أنس النبي بالله شديداً ، حتى غلب أنسه بالله وحشة المكان !؟

هناك أخوان صعدوا إلى هناك ، فالإنسان بعد الأربعين أو الخمسين من الصعب عليه أن يذهب إلى غار حراء ، ولو أن هناك طريقاً لكانت القضية سهلة جداً ، وأنا أتمنى أن يكون هناك طريق سهل إلى غار حراء ، لتري المكان الذي نزل على النبي الوحي ، هذا الدين العظيم من هنا بدأ :



﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

(سورة العلق)

كان عليه الصلاة والسلام يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وتزوده السيدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من طعام وشراب ، فإذا نفذ زاده ، رجع صلى الله عليه وسلم إلى السيدة خديجة ، معه طعام وشراب يكفيه أيام معدودات ، يجلس وحده يتأمل ، يفكر ، يناجي ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ :

((أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ ، ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا .))

[متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها]

هذا كلام السيدة عائشة تروي عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

السيدة خديجة كان يسعد ما يسعد النبي ويسرها ما يسرها :

احتملت رضي الله عنها بعد النبي عنها ، فالحقيقة أحياناً هناك زوجات غيورات ، وهناك زوجات لا يحتملن أن يبتعدن عن أزواجهن ، لذلك إذا ابتعد عنهن أزواجهن كن عبئاً عليه ، يضايقته ، يزعجه ، السيدة خديجة كان يسعد ما يسعد النبي ، يسرها ما يسر النبي ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام يسعد بالخلوة بربه فكانت ترضى بذلك ، هي قدوة لكل امرأة مؤمنة ، فأحياناً تكون الزوجة أنانية ، تحب أن يكون زوجها لها وحدها ، ولا تعبأ بعمله الصالح ، ولا بسعيه في سبيل نشر الحق ، لذلك تكون عبئاً عليه ، أما السيدة خديجة هي في خدمته ، فأية امرأة ترضى أن يغيب زوجها عنها أياماً طويلة ، وتبقى وحدها في البيت ، شيء لا يقبل ، لكن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت تحتمل بعد النبي عنها ، وكانت تصبر على مفارقتها لها ما دام ذلك يعجبه ، والله هذه أخلاق عالية جداً ، الذي يسعد ترضى به ، والمعروف من أحوال المرأة أنها تغضب إذا ما ابتعد زوجها عنها ، تتركها الغيرة عليه ، وتخشى أن يكون إعراضه عنها بسبب كرهه لها ، أو ميله إلى غيرها ، ولكنها رضي الله عنها خالفت جميع النساء في هذا الشأن ، فجوهرها الصافي يختلف عن جوهرهن رضي الله عنها .

كانت تحب كل ما يحب رسول الله ، وما دام يحب العزلة والخلوة بنفسه فليكن له ما يحب ، كانت فقط تقلق عليه ، وتخشى أن يصيبه مكروه .

ما هذه الأخلاق ؟ هذه زوجة ملء السمع والبصر ، يسعد ما يسعد ، يرضيها ما يرضيه ، يسرها ما يسرها .

أحياناً كان عليه الصلاة والسلام يتأخر في العودة إليها ، فترسل غلمانها وخدمها في طلبه والبحث عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد خرجت معه مرة إلى غار حراء ، وصحبته هناك في عزلته وخلوته .

جاء في بعض الروايات : أنه صلى الله عليه وسلم خرج في بعض المرات إلى غار حراء ومعه أهله .

المرأة الصالحة هدية الله تعالى للإنسان المؤمن :

لا زلنا نقترّب من الوحي ، بدأنا بهذه الأحجار التي تسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم : " السلام عليك يا رسول الله " . ثم الرؤيا الصادقة ، ثم هذه الخلوة مع الله في غار حراء ، وكلما دنا الموعد الذي قدره الحكيم العليم ببدء نزول القرآن الكريم ، زادت هواتف الحق واشتد النور ، وكلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً ، لجأ إلى السيدة خديجة رضي الله عنها ، فتنبّته وتبشّره ، وبهذا ظهرت حكمة الله تعالى عندما قدر أن تكون السيدة خديجة زوجةً للنبي . أي أن من إكرام الله لهذا النبي الكريم أن جعل هذه المرأة العاقلة ، الرشيدة ، الكريمة ، ذات القلب الكبير ، والصدر الواسع ، والأفق الواسع زوجةً لهذا النبي ، الحقيقة أيها الأخوة صدقوني في هذا الكلام ، في الأعم الأغلب المرأة للمؤمن هدية الله إليه ، المرأة الصالحة :

((إِنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[النسائي عن عمرو بن العاص]

التي :

((إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها))

[الجامع الصغير عن عبد الله بن سلام]



هذه الزوجة هدية الله للإنسان ، لذلك :
((ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لنيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لنيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لنيمياً غالباً))

[ورد في الأثر]

استمر عليه الصلاة والسلام يرى الضوء ويسمع الصوت ، حتى جاءه مرة وعرفه جبريل بنفسه دون أن يراه

— هذه مرحلة رابعة — وقال له: " يا محمد أنا جبريل " ، صوت بلا صورة ، لا توجد صورة ، " يا محمد أن جبريل " ، وعاد صلى الله عليه وسلم إلى السيدة خديجة وقال لها : " والله خشيت

أن يكون هذا أمراً " ، قالت له رضي الله عنها لكي تثبته وتزيل قلقه واضطرابه : " معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك ، إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، ما كان الله ليفعل بك ذلك " .

في ليلة من الليالي أسمع جبريل صوته مسلماً ، قال : " السلام عليكم " ، وعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى السيدة خديجة مسرعاً ، قالت : " ما شأنك ؟ " ، فأخبرها ، فقالت : " أبشر فإن السلام خير " .

لعل هذا كان بعيداً عن معلوماتكم ، لم يأت الوحي فجأة لأن النبي بشر قد لا يحتمل .

ظهور جبريل للنبي على هيئة إنسان :

أيها الأخوة الكرام ، مرّت الشهور كان فيها تمهيد للوحي ؛ رؤيا صادقة ، وجاء شهر رمضان المبارك ، وصعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء يتعبد فيه ، وزوّدتته السيدة خديجة رضي الله عنها بما يحتاج إليه من الطعام والماء ، وفي ليلة من ليالي رمضان بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في غار حراء مستغرقاً في تأملاته وأفكاره ، إذا بالنور الذي كان يراه يظهر أمامه في أفق السماء من جهة البيت العتيق ثم يدنو منه ، وكلما اقترب ازداد قوةً وسطوعاً ، ثم بدا له في وسط النور أمين وحي الله تعالى جبريل عليه السلام ظهر جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم في هيئة إنسان ، وجاءه يحمل نمطاً من ديباج ، وخيم على الكون هدوءً عجيب ، وكأنه يُنصت إلى كلمات الله تعالى ، الجبل الشامخ بهامته العالية ، وصخوره ، وذرات ترابه ، وحبّات رماله ، والنباتات الصغيرة ، والشجيرات التي تطرز سفوحه ، كلها أنصتت ، وأرهفت سمعها ، حتى النجوم في قبة السماء ازدادت تألقاً وسطوعاً كأنها تدنو من جبل النور ، الذي لفّه النور من كل جانب ، وحرست السماوات ، ومنعت الشياطين والجان من الاقتراب من السماء الدنيا ، وهاهو جبريل عليه السلام يقف في غار حراء .

كان في البداية : " السلام عليك يا رسول الله " ، بلا صوت وبلا صورة ، بعد ذلك رؤيا صادقة ، ثم ابتعاد عن الناس والخلوة بالله عز وجل ، ثم نور يراه من بعيد ، ثم سلام ؛ " أنا جبريل السلام عليك " ، ثم رأى هذا النور في أفق السماء ، فاقترب شيئاً فشيئاً حتى تشكّل على صورة إنسان ، كان عليه الصلاة والسلام يراه بعينه يقظة لا في المنام ، والدليل : ها هو ذا جبريل عليه السلام يقف في غار حراء أمام محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي يلقي إليه الرسالة الإلهية الأولى التي يفرق فيها كل أمر حكيم :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) ﴾

(سورة الدخان)

اللقاء والاتصال بين الأمينين أمين وحي السماء وأمين وحي الأرض في رمضان :

قال تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا
أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ
مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾

(سورة القدر)

وقال :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ
هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ (١٨٥)﴾

(سورة البقرة : من آية " ١٨٥ "

سابقاً كان في منام ، أما الآن يقظة ، والدليل أن تم هذا اللقاء والاتصال بين الأمينين ؛ أمين وحي السماء جبريل عليه السلام ، وأمين وحي الأرض سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وضم الأمين السماوي الأمين الأرضي ليتم الاتصال ، ويسري النور ، ضمه إليه ضمة شديدة — أي أنك لست في منام ، أنت في يقظة — ضمه إليه ضمة شديدة حتى التصق الجسد الأرضي بالجسد النوراني السماوي ، ثم ألقى عليه هذه الكلمة : اقرأ ، ديننا كله علم ، أول كلمة في القرآن اقرأ .

بدء الوحي السماوي إلى الأرض :

قالت عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي :

((حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأ ، قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأ ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ))

[الزهري عن عائشة]

أي يجب أن تستخدم علمك في معرفة الله ، اقرأ باسم ربك الأكرم ، اقرأ لتعرف ربك الأكرم ، استخدم القوة الإدراكية لتتعرّف إلى ربك الأكرم ، لماذا ضمني ؟ ليس في المنام في اليقظة ، لئلا يقول أحدهم لعلها رؤيا رآها ، لعله وهمّ توهمه ، لعله شعورٌ راوده ، لا ، رآه رأي العين ، رأى جبريل عليه السلام رأي العين ، لم يكتف بأن رآه ، لو كان رآه ، هو نور ، شيء غير مادي ، لم يكن ضمه هذه الضمة ، لما ضمه صار شيئاً مادياً ، هو في أعلى درجات اليقظة ، وجبريل ضمه ، وغطاه حتى بلغ منه الجهد ، وقال له : " اقرأ " ، أول مرة قال : " ما أنا بقارئ " ، قال :

اقرأ " ، قال : " ما أنا بقارئ " ، قال : اقرأ ما في الكون من آيات ، اقرأ من أجل أن تعرف الله ، هذا بدء الوحي :



﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ
(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا
لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

(سورة العلق)

أرأيتم أيها الأخوة إلى هذا التدرج في إرهاصات النبوة ، وفي الرؤيا الصادقة ، وفي السلام الذي كان يطرحه الحجر والمدر عليه ، ثم في قول جبريل : أنا جبريل ، ثم في قول جبريل : السلام عليك يا محمد ، ثم في رؤية النور في الأفق ، ثم في تجميع هذا النور إلى أن صار على هيئة إنسان ، ثم أمسكه وضمه وقال : اقرأ ، الآن بدأ الوحي السماوي إلى الأرض ، بدأت رسالة السماء إلى بني البشر . وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الحدث الخطير الذي هو من أخطر أحداث الدعوة الإسلامية ؛ إنها نزول الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

والحمد لله رب العالمين